التقديم والحذف التداوليان في ديوان هاشم الرفاعي

إعداد الباحث

حمادة صبري صالح

يُعد الافتراض المسبق آلية من آليات المنهج التداولي لاسيما أن السياق لا يمكن تجاهله في دراسة اللغة، ولا يستطيع أحد أن ينكر أن التداولية هي ذلك الفرع من اللغة الذي يجب أن يتناول مساهمة السياق في إنتاج التعبير اللغوي وبنائه وتفسيره حتى أصبح دور " السياق" واضحًا شائعًا في النقاشات حول اللغة كما عبّر عنه ماكس بلاك عام ١٩٧٠م "عندما اقترح خلق علم مستقل وخاص به، ودعا إلى إعادة تسمية التداولية ؛ إذ عليها أن تُسمى " بالسياقية" [١] .

وفيما يخص العمل الأدبي فإنه لا يأتي من فراغ فكري أو اجتماعي، إذ لابد له من مبدع، ولابدّ لهذا المبدع بدوره من موقف اجتماعي من قضية فنه ، ومن هنا يتعين فحص منشأت النص الأدبي من خلال تفحص الأساس الذي نهض عليه، ولعل الاختيار يكون كاشفًا لجملة الشروط المادية والفكرية والشخصية والاجتماعية التي أسهمت في الأثر الأدبي والمبدع في الآن عينه ؛ إذا لا يمكن أن يكون المبدع بمعزل عن موقف اجتماعي من قضية فنية ذلك ؛ لأن النص نتاج قضية اختيار تحكم المبدع ، ونتاج ملابسات لمواقف تفرض مقولاتها عليه، ثم تتصاهر وتتداخل مع المبدع تأثرًا وتأثيرًا [٢] ومن هنا تؤكد الدراسات النقدية المعاصرة – ومن ضمنها التداولية – صلة النص الأدبي بمبدعه، وهي صله تردها إلى قيمة ما تقدمه في استكشاف عوالم النص الداخلية والخارجية على السواء .

---

[١] - د. منال نجار،نظرية المقام عند العرب في ضوء البراغماتية ،١٠.

- ينظر أيضًا : د. محمد عناني، المصطلحات الأدبية الحديثة، ٧٦؛ حيث نقل أكثر من ترجمة للمصطلح الإنجليزي pragmatics ؛ منها السياقية .

[٢] - د. محمود سليم محمد ، الخطاب الديني في الشعر العباسي إلى نهاية القرن الرابع الهجري، عالم الكتب الحديث ،إربد ،الأردن ،ط١، ٢٠٠٩م ،٢١٢.

أَمَّا عن الافتراضات المسبقة والمحتوى الشعري فإن الشاعر لا يبدع من فراغ، ولكنه يراعي مجموعة من المبادئ التداولية التي تضمن التجاوب مع نصه وقد لا تكون هذه المبادئ موجودة سلفًا، بل تبني في شق كبير منها على مجموعة من الافتراضات المسبقة، وعلى هذا الأساس فإن بناء الشاعر لقصيدة ما يتأسس على بناء سلسلة من الافتراضات تعمل على مراعاة مبدأ لكل مقام مقال الذي يقوم على تصور معين لنوعية المخاطب ، ونوعية العلاقة الاجتماعية، وطبيعة الموضوع المتحدث عنه، والمكان، والزمان، فيكون التفاعل شاملًا يتصل بوضعية الخطاب، ويتصل كذلك بالبنية الاجتماعية والمجموعة اللسانية التي ينتهي إليها المتكلم (الشاعر)، إذا لابد أن يكون حاضرًا في ذهن الشاعر أن لكل مقام مقالًا ولكل صنعة شكلًا، فالشاعر لا يبدع في إنتاج معانيه أشكاله الشعرية إلا وعينه على الآخر، وقد يُظن: " أنَّ حركة الشاعر في إبداع القصيدة تتم ببلوغه البيت الأخير أو الصورة الأخيرة التي يرضاها لها، وهذا خطأ، فالنصوص والشواهد تدل على أن الشاعر يخطو خطوة أخرى بعد الفراغ من آخر بيت في القصيدة هذه الخطوة " هي محاولة بناء (نحن) فإن رضا الآخرين عن قصيدته وقبولهم لها معناه أن الآخرين قد تغيروا بمعنى ما، بحيث أصبحوا أقرب إليه مما كانوا من قبل، وقد يسرت القصيدة هذا الإقتراب "[١].

وسوف نلحظ دور الافتراضات المسبقة من خلال عرضنا لتداولية الحذف والتقديم في ديوان هاشم الرفاعي على النحو التالي :

[١] د . يونس أحمد السامرائي ،أبحاث في الشعر العربي، ٢١٩.

أ- التقديم تداوليًا:

أعني بالتقديم تداوليًا، التقديم الذي تحكمه ظروف الاستعمال اللغوي بين الطرفين الأساسيين في العملية التواصلية للمتكلم والمخاطب، ومن ثم يأتي سببًا لهذه الظروف على هذه الصورة؛ لغرض تداولي أصيل هو مقصد المتكلم .

فقد يلجأ المتكلم إلى تغيير مواقع عناصر التركيب لأغراض وغايات تداولية يريد تحقيقها، بالإضافة إلى أنّه يسعى إلى جعل خطابه يستجيب لحال مخاطبه، لتحقيق التفاعل والانسجام"[١].

ومن هنا فإن السامع هو العنصر الفاعل في تقرير المعنى المراد؛ فهو الذي ينفذ إلى تناسب البنية مع المعنى، فلا يقدر خلاف ما تستوجبه البنية؛ لأن المعنى ظاهر من بداية الأمر؛ أي : إن إنتاج المعنى ليس بمنفصل عن تشكيل البنية القادرة على حمل ذلك المعنى؛ لأن المخالفة بينهما تؤدي إلى المحال أو الممتنع [٢].

فالتقديم التداولي إذن يعتمد على الاستعمال، بمعنى أنه جاء وليدًا للحدث الكلامي الحي المشاهد، الذي صاغ بنيته؛ لمعالجة الموقف الكلامي بتحقيق الغرض التواصلي بالوصول إلى مقصد المتكلم .

فلكل بنية تركيبية، إذن ، معناها ومقصدها وغايتها التداولية، ولكل صيغة وظيفة إبلاغية توجبها ملابسات الخطاب وأغراضه، ومن أهم تلك الملابسات والأغراض مراعاة حال السامع والفائدة التي يجنيها من الخطاب "[٣] .

---

[١] د. مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب ، ٢٠٤.

[٢] د. سعيد بحيري، دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، مكتبة الآداب، القاهرة،٢٠٠٥، ٢٣١.

[٣] د. مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب،١٩٢.

سبق وأن تكلمنا عن المسرح اللغوي الذي يشتمل المتكلم والمخاطب والحدث التواصلي ..... إلخ ، فهل تتأثر اللغة بنيتها طبقًا للعلاقة بين المتكلم والمخاطب في هذا التواصل أو الاستعمال ؟ ، فنحن ندرس اللغة في الاستعمال تأثيرًا وتأثرًا .

نعم تتأثر اللغة في بنيتها طبقًا للعلاقة القائمة بين المتكلم والمخاطب أثناء الاستعمال ؛ حيث إنَّ المتكلم يبني لغته طبقا لما يراه من حال سماعة وقابليتة للكلام وما يتوافق ومقصده من الكلام .

ونحن معنيون هنا بالتقديم المتعلق والقائم على معرفة المخاطب والمبني في الأساس على رؤية المتكلم للمخاطب، بمعنى آخر سنتناول التقديم الذي أجبر المتكلم على استعماله من قبل المخاطب .

فالقاعدة التي تحكم مسألة التقديم تستند إلى عنصر غير لغوي، معرفة ضرورية تقع خارج المنطوق، هي علم السامع [١].

وهكذا سنتناول في هذا المبحث أثر المخاطب على المتكلم في البنية التركيبية للغة، والذي يفترض مسبقًا علم المتكلم والمخاطب به على حد سواء .

"ويعد مبحث التقديم والتأخير من المباحث الأساسية في علم البلاغة العربية ؛ فهو واحد من الأركان التي يقوم عليها علم المعاني لما له من وثيق الصلة بقصد المتكلم ،وحال المخاطب والمقام الذي يلقى فيه الكلام ،وهي العناصر التي يُعنى بها علم المعاني في سعيه لوضع ضوابط توصل المعنى من المتكلم إلى المخاطب سليمًا وخاليًا من اللبس "[٢] .

ولقد ضبط النحاة الأوائل الحالات المحتملة للجملة العربية في نمطين لاثالث لهما الأول هو نمط الجملة الاسمية ،وذلك حين تبدأ الجملة باسم ، والثاني هو نمط الجملة الفعلية

[١] د. سعيد بحيري، دراسات لغوية تطبيقية،٢٤٥.

[٢] - د.محمود نحلة ،آفاق في البحث اللغوي المعاصر ، ٤١.

،وذلك حين تبدأ الجملة بفعل ، ويتكون كل نمط منهما من عنصرين أساسين هما المسند إليه والمسند .

وقد استقر النحاة على أن "الأصل في الجملة الاسمية هو أن يأتي المبتدأ مقدمًا والخبر مؤخرًا ، وماعدا ذلك مخالف للأصل ،والأصل في الجملة الفعلية هو أن يلي الفاعل الفعل ،وأن يلي المفعول الفاعل وماعدا ذلك مخالف للأصل " [١].

وبالتالي فإن الكلام عن التقديم والتأخير في هذا السياق يجب أن يركز على الجمل المخالفة للنسق الأصلي للجملة العربية (الاسمية والفعلية) إلا أنّ مايعنينا في هذا السياق هي الحالات التي ترتبط بمقاصد المتكلمين ،وأحوال المخاطبين ، والمقامات التي يلقي فيها الكلام ويكون ذلك بتقديم الخبر على المبتدأ ،وتقديم المفعول على عامله ،وتقديم المفعول على الفاعل ، وتقديم متعلقات الفعل عليه.

ويعرض البحث في هذا المقام لبعض صور التقديم والتأخير في شعر هاشم الرفاعي والتي يتضح من خلالها أثر المخاطب على المتكلم في ترتيبه البنية التركيبية للغة والذي يفترض مسبقًا علم المتكلم والمخاطب به على السواء.

ومن الشواهد قول الشاعر في القصيدة (الأسد السجين) – ٢ ديسمبر ١٩٥٢م – :

فلم يسلم من الأحداث غرب ولم يأمن شرور القوم شرقُ

ففي الوادي لهم كيدٌ ومكرُ وفي إيران إرعادٌ وبـرقُ

وفي مراكش سالت دماءٌ بكت مصرُ لها ورثت دمشق

هبوه أتى الذي عدوه جُرما ففي ماضيه تكفير وعتـق[٢]

حيث أراد الشاعر أن يبرهّن على أنّ المستعمرين لم يسلم من بطشهم شرق ولاغرب فظلمهم وطغيانهم شمل الأقطار جميعًا مما جعل الشاعر يستعين في البيت الأول وصولًا إلى غرضه

[١] - د.فاطمة البريكي ،إشكاليات التقديم والتأخير في الدرس البلاغي التراثي ،مجلة جامعة الملك سعود ،م٢٠ الآداب (٢) ٢٠٠٨م – ١٤٢٩هـ ،٢٥٥.

[٢] - ديوان هاشم الرفاعي ، ١٥٨.

بتقديم المفعول به على الفاعل في قوله : (ولم يأمن شرور القوم شرقُ) حيث قدم المفعول به (شرور) على الفاعل (شرقُ) ، وفيما تلاه استعان بتقديم الخبر شبه الجملة على المبتدأ النكرة حيث لايجوز تأخير الخبر إذا كان المبتدأ نكرة ؛ لأن الخبر مع التأخير والحالة هذه يُوهِم بأنه نعت ، ومن ذلك قول الشاعر (لهم كيد، وفي إيران إرعاد وبرق، ففي ماضيه تكفير وعتق) حيث قدَّم الخبر شبه الجملة اهتمامًا بالمتقدم وإظهارًا له ووصولًا إلى قصده وفقًا لمتطلبات الخطاب ووصولًا لبؤرة اهتمام المخاطبين .

ومازلنا مع التقديم والتأخير إلا أن هذه المرة نعرض لتقديم خبر كان على اسمها في قول الشاعر في قصيدة (دماء من السودان) :

فكان له ماشاء من دسائس تدبّرها أهواؤه ومشاربه[١]

فقد أراد الشاعر أن يوبّخ أحد أقطاب الفتنة في السودان فقدم خبر كان شبه الجملة (له) على اسمها (ما الموصولة) – والتي جاءت بمعنى الذي مراعاةً لمتطلبات الخطاب وتحقيقًا لمقصده حيث أراد الشاعر أن يثبت إدانة المتحدث عنه فهو صاحب الدسائس وهو مدبر المجازر مستعينًا في ذلك بتقديم شبه الجملة (له) – أي له هو دون سواه – اهتمامًا به وتخصيصًا له وتحديدًا.

ومن تقديم المفعول به على الفعل والفاعل قول الشاعر في قصيدة (أغنية صومالية) – ١٢ أكتوبر ١٩٥٨م– :

ستعود الأشلاءُ الخمسُ جسدًا لايطويه اليأس

وجحيمًا سعَّره البأس تذكيه نفوس الأبطال[٢]

حيث يشير الشاعر متحدثًا بلسان أحد أبناء الصومال مخبرًا بأن الأشلاء التي مزقها الاحتلال – حيث قسم القطر الصومالي إلى خمسة أجزاء– ستعود جسدًا واحدًا ولُحمةً متحدة وقد استعان في

[١] - ديوان هاشم الرفاعي ،١٦٠.
[٢] - السابق ، ١٨٧.

سبيل إيصال مقصده بتقديم المفعول به على الفعل والفاعل وتمثل ذلك في قوله (جحيمًا سعره البأس) حيث قدّم المفعول به (جحيمًا) على الفعل (سعَّر) والفاعل (البأس) تحذيرًا للمحتل، وتأكيدًا على ثقته في استعادة وحدة أراضيه ومشيرًا إلى أنّ بأس الصوماليين سيحول الأرض المحتلة إلى جحيم مستعر يلاحق الاحتلال في كل الأنحاء وقد قدّم المفعول به على الفعل والفاعل في هذا السياق وفقًا لمتطلبات الخطاب وإيصالًا لمقاصده ،" والأصل في الجمل التي تحتوي مفعولًا به أن يؤتى بالفعل فالفاعل فالمفعول به فإذا ماقدم المفعول به على الفاعل فلا شك في أنّ هذا عدول عن التعبير الطبيعي مما يصحبه عدول عن معنى إلى معنى آخر "[١]وتحويل اهتمام المخاطب للمتقدم ؛ليصل إلى قصده وهو تحذير المحتلين وجدير بالذكر أنّ مرد هذا التقديم هو تحقيق مقاصد المتكلم ؛ إذ إن التقديم يأتي لإثبات شيء أو نفيه في سياق الموقف الكلامي والذي يمثل جزءً أصيلًا من مقصد المتكلم .

ونلحظ أهمية التقديم وأثره في بناء جسور التواصل بين المتكلم والمخاطب في قول الشاعر في قصيدة (دين وعروبة) – نوفمبر١٩٥٨م – :

أنا أُنَبيك عن الداء وعن طِبّه المهجور ملءَ الكتب [٢]

فالشاعر أراد أن يذكر الإنسان العربي المسلم المعاصر (المخاطب) بمجد الأجداد وسبب زواله وسُبل العلاج مستعينًا بتقديم المسند إليه المتمثل في الضمير

(أنا) بغرض توجيه الاهتمام والنظر إليه على أنّه وحده يملك العلاج للمخاطب ذلك الإنسان العربي الحائر المضطرب ،ولاريب أنّ استعانة الشاعر بتقديم المسند إليه مردها السياق الحال حيث يرى أمامه إنسان يعاني من علة إلا أنه – المريض– لايدري لها سببًا فيتوجه إليه مخاطبًا ومعلنًا امتلاكه للعلاجُ الذي يتلخص في التأسي بالسلف لاستعادة السبيل القويم واسترداد المجد

[١]- ابن هشام الأنصاري ،شرح اللمحة البدرية في علم اللغة العربية ،تحقيق : د.هادي نهر ،دار اليازاوري ، عمان ،الأردن، ٢ /١٠.

[٢] - هاشم الرفاعي ،١٨٩.

الذي كان ،" ويتضح من ذلك أنّ التقديم صنيع الموقف الكلامي يوجبه على المتكلم، فلولا الحاجة إليه والتي أوجبها سياق الحال ماكان للشاعر أن يستعين به ولكنه جاء لعلة أحدثتها ملابسات الخطاب ورغبة المتكلم في الوصول لغايته ومقصده " وتقديم المسند إليه إنّما يكون للدلالة على التأكيد والقوة وأكثر مانجده في الوعد والضمان ؛لأن من تعده ومن تضمن له من شأنه أن يعترضه الشك في تمام الوعد ولهذا فهو أحوج إلى التوكيد ، فتقول : أنا أعطيك ، أنا أكفيك " [١].

ومن ذلك قول الشاعر في قصيدة (رسالة في ليلة التنفيذ) – مارس ١٩٥٥م –

أنا لا أحس بأيّ حقد نحوهُ ماذا جنى؟ فَتَمُسُه أضغاني[٢]

فتقديم المسند إليه الضمير (أنا) جاء لغرض مهم وهو التأكيد على أنّ السجين لايحمل في نفسه أي حقد أو ضغينة للسّجان ، ولمّا كان الكلام يعترضه الشك إذ كيف للسجين ألا يحقد على أداة من أدوات سجنه وهو السجان؟ فاستعان الشاعر بتقديم المسند إليه (أنا) ليدحض هذا الشك فالسجين يلتمس العذر للسجان حيث يرى أنّه لايملك من أمره شيء وإن لم ينفّذ الأوامر التي تلزمه بها السلطة الحاكمة الطاغية فسوف يُفصل من عمله مما يؤثر سلبًا على مستقبل أبنائه لذلك قال الشاعر بعدها :

هو طيب الأخلاق مثلك ياأبي لم يبدُ في ظمأ إلى العدوان

لكنه إن غاب عني لحظة ذاق العيال مرارة الحرمان [٣]

وكذلك نرى أنَّ الشاعر قد استعان بالتقديم في هذا السياق؛ ليضع مقصده في بؤرة اهتمام المخاطب ، وتلبية لمتطلبات الخطاب .

ومازلنا مع التقديم التداولي ومثال آخر من قصيدة (موكب الربيع)– مايو ١٩٥٤ م حيث يصور الشاعر أحاسيسه ومشاعره ومايراه في قريته من جمال وروعة ومايقوم به أهل القرية من عمل وكفاح في سبيل تحصيل لقمة العيش قائلًا :

[١] - د.مسعود صحراوي ،التداولية عند العلماء العرب ،٢٠٤.
[٢] - هاشم الرفاعي ،١٦٦.
[١]-هاشم الرفاعي ،١٦٦.

هناك الجمال ،جمال الحقول هناك الطبيعة كالغانية

ويقول في القصيدة نفسها :

ومن فوقه نسوه قد جلسن لغسل الثياب أو الآنيـة

حياة بها البشْرُ ،فيها الهدوء عليها السلام ، بها العافية[١]

حيث استعان الشاعر بآلية من آليات الافتراض المسبق وهي التقديم المتمثل في تقديم شبه الجملة (الخبر) على المبتدأ سواء أكان المبتدأ نكرة أم معرفة وحيث جاء بشبه الجملة – الخبر المقدم – على صورة الظرف ومايضاف إليه تارة في نحو (هناك الجمال ،هناك الطبيعة) وتارة أخرى جاء الخبر شبه الجملة المقدّم في صورة الجار والمجرور في (بها البشر ،عليها السلام ،بها العافية).

ولعل استعانة الشاعر في هذا المقام بالتقديم التداولي إظهارًا لعشقه لقريته وأهلها والحياة فيها وذلك يتضح من كثرة الإشارات إليه وتقديم هذه الإشارات اهتمامًا بقريته ووصولًا لمقصده والمتمثل في وضعها في بؤرة اهتمام المخاطب .

ومن ذلك أيضًا قول الشاعر في قصيدة (عيد الثورة):

وكان بهامش التاريخ شعب يائس ضائع

يباع ويُشترى والحقد مطويٌ به جائـع[٢]

حيث قدَّم الشاعر خبر كان (بهامش التاريخ) على اسمها النكرة (شعبٌ) ؛ ليؤكد على أنَّ الشعب المصري قد عاش في بعض الأزمان على هامش التاريخ حيث الإرادة المسلوبة والكيان المفقود ومعاناة الاستعمار والحرمان من خيراته ، فلخص ذلك كله في خبر كان المقدم وهو (بهامش التاريخ) على اسمها (شعب) اهتمامًا بالمتقدم وتحقيقًا لمقصده .

---

[١]- السابق ،١١٢.

[٢] - ديوان هاشم الرفاعي ، ٢٤٩.

ومن ذلك أيضًا قول الشاعر في قصيدة (رسالة في ليلة التنفيذ) :

وعلى الجدار الصلب نافذة بها معنى الحياة غليظة القضبان [١]

حيث قدَّم الخبر شبه الجملة (على الجدار الصلب)على المبتدأ (نافذة) في سياق حديثة عن قسوة السجن وشدة ظلامه ليوجه الأنظار (المخاطبين) إلى صلابة الجدار الذي يحول بينه وبين حريته ليوجه المخاطبين إلى الثورة على الطغيان والاستبداد وعدم التسليم بالأمر الواقع فبدأ بالجدار الصلب اهتمامًا ولوضعه في بؤرة اهتمام المخاطبين .

وجدير بالذكر أننا حين نعتد بالتقديم باعتباره أحد أدوات الافتراض المسبق يكون مرد ذلك إلى الارتباط الوثيق بين التقديم وبين سياق الحال من جهة ،والصلة الوثيقة بينه وبين مقاصد المتكلم من جهة أخرى .

[١] – السابق ،١٦٦.

ب- الحذف تداوليًا:

تدفع دلالة السياق المتكلم في كثير من الأحيان إلى الاختصار والحذف لبعض عناصر الجملة ،فالكلام بين المتخاطبين تابع للحالة الكلامية بينهم فقد يُسهب المتكلم وقد يوجز وقد يذكر وربما يحذف حيث إن الحذف في بناء الجملة أحد المطالب الاستعمالية ،وإذا كانت التداولية هي :" العلم الذي يهتم بدراسة العوامل التي تؤثر في اختيار الشخص للغة ،وتأثير هذا الاختيار في الآخرين "[١] فسنعني هنا بالحذف المستند إلى دليل خالي بين المتكلم والمخاطب والذي أجاز للمتكلم الحذف اعتمادًا على سياق الحال والاستعمال .

الحذف أحد طرق الافتراض المسبق ؛لأنه يقع بعد رؤية المتكلم لحال المخاطب ومشاهدته للحدث الكلامي ؛فيحذف بعد ذلك اعتمادًا على فهم المخاطب ومشاركته في المسرح اللغوي ومن شواهد الحذف التداولي في شعر هاشم الرفاعي قوله في قصيدة (ذكرى المولد) – ٣٠ نوفمبر ١٩٥٢م- :

نبيٌ أتى والكون في الغي مبادر فيكشف عنه من دجى الشرك غيهبا

نبيٌ فيه للعلياء صرحُ ممتع وأمطره غيثًا من الهدى صيبــًا[٢]

حيث حذف الشاعر (المتكلم) المسند إليه وصرح بالمسند (الخبر) مباشرة وأصل الجملة (هو نبيٌ) وذلك اعتمادًا على سياق الحال ، فالمخاطب ليس في حاجه لذكر المسند إليه (المبتدأ) وهو النبي- صلى الله عليه وسلم – لاسيما أنه في سياق المدح ،والحذف وقع بناء على معرفة مسبقة بما تم حذفه بين المتكلم والمخاطب فهو مختزل للمعنى القائم لدى طرفي الخطاب ، وقد تكرر ذلك في البيتين (نبيٌ أتى) و(نبيٌ فيه للعلياء صرح) .

ومن ذلك أيضًا قول الشاعر في قصيدة (شباب الإسلام):

شباب لم تحطمه الليالي ولم يُسْلِم إلى الخصم العرينا [٣]

---

[١] د.محمود سليمان ياقوت ،معاجم الموضوعات في ضوء علم اللغة الحديث ،٣٠٤.
[٢]- ديوان هاشم الرفاعي ، ١٣٤.
[٣] - السابق ،١٩٧.

والتقدير (هم شباب) حيث حذف الشاعر المبتدأ (المسند إليه) في سياق المدح وصرّح بالمسند (الخبر) مباشرة وذلك إنما مرده إلى الافتراض المسبق المنعقد بين المتكلم والمخاطبين .

وحقيقة الأمر أننا أمام علاقة وثيقة الصلة بين المتكلم والمخاطب وسياق الحال الجامع بينهما ؛ إذ لايمكن بأية حال معرفة المحذوف دون الرجوع إلى سياق الحال وملابسات الخطاب وبالتالي فإن الحذف المعتمد على سياق الحال والمقام يتأثر بالظروف المحيطة بالخطاب ،هذه الظروف قد تكون لصيقة بالمقصد الإنجازي للمتكلم ،وشديدة التعلق بالقصد .

في قصيدة (ميلاد الرسول) – نوفمبر ١٩٥٣م– ويقول الشاعر على لسان مشركي قريش في ذم النبي صلى الله عليه وسلم :

وقالوا فقير ينشد الجاه والغنى ومهمل قوم شاء أن يتنزّعــا

خرافات مجنون ،وأوهام شاعر به من رئى الجن داء تحكمــا[١]

حيث حذف الشاعر المسند إليه (المبتدأ) في سياق الذم والتقدير (هو فقير) و(هي خرافات مجنون) و(هي أوهام شاعر) حيث تم الحذف في الاستعمال اللغوي ، بالتوافق بين العنصرين الرئيسين لعملية التواصل وهما المتكلم والمخاطب ولا سبيل لتأويل المحذوف إلا بالعودة للمسرح اللغوي (سياق الحال) ولايخفى أن الحذف – والسياق كذلك – أبلغ وأوجز من الذكر .

ومن حذف عامل المفعول المطلق قول الشاعر في قصيدة (مأساة زعيم) حيث يقول مادحًا الزعيم مصطفي النحاس – أكتوبر ١٩٥٢م– :

أحقًا خلا من عزم سيده الوفد كذا فَلْيتم المكر وليفلح الكيد [٢]

والتقدير (أحق حقًا) حيث حذف الشاعر عامل المفعول المطلق وصرح به اعتمادًا على الافتراض المسبق لاسيما أنَّ الحذف التداولي هو صناعة صنعها المتكلم والمخاطب بناء على خلفية مسبقة

[١] – ديوان هاشم الرفاعي ،١٣٨.
[٢] - السابق ،٢٢٠.

وعلم مشترك بينهما وحال جامعه جمعت كليهما ومثلها "مهلًا " في قول الشاعر في قصيدة (ذكرى المولد) – نوفمبر ١٩٥٢م – :

مهلًا لعمري إنَّ جند محمد لأعز من جند الضلال وأرفع [١]

حيث مهلًا مصدر لفعل محذوف تقديره (أمهل) وقد تم الحذف والتعبير مباشرة بالمصدر المطلق (مهلًا) اعتمادًا على الافتراض المسبق .

وهنا نلحظ تأثر بنية اللغة بالحال التي تكتنفها حيث إن سياق الحال أو الاستعمال يؤثر في دلالة اللغة وتشكيلها .

ومن حذف عامل الحال غير المعنوي جوازًا لدليل حالي قول الشاعر في قصيدة (دين وعروبة) – نوفمبر ١٩٥٨م– والمتمثل في (ضاربًا) حيث قال :

أيها السائر بين الغيهب عاثر الخطو جليَّ التعب

ضاربًا في لجة غامضة من محيط العالم المضطرب[٢]

حذف عمل الحال غير المعنوي (ضاربًا) اعتمادًا على سياق الحال الذي يغني عن ذكر العامل والتقدير (تمشى ضاربًا) حيث إن السياق يمثل الوعاء الذي يحوي اللغة والحذف تمّ بناء على معرفة مسبقة بم تم حذفه بين المتكلم والمخاطب والحذف التداولي في هذا السياق أوقع وأبلغ وأكثر إنجازًا للمقصد عن الذكر والإسهاب .

ومن حذف المبتدأ (المسند إليه) قول الشاعر في قصيدة (في ظلال الريف) :

ذكرى كفوَّاح العبير هاجت بأنحاء الصدور

واستيقظت في النفس تشعلها كجيَّاش الشعور[٣]

---

[١] - ديوان هاشم الرفاعي ،١٣٤.
[٢] - السابق ، ١٨٩.
[٣] - السابق ،١٠٣.

حيث حذف الشاعر المبتدأ (المسند إليه) وتقديره (هي) اعتمادًا على سياق الحال وملابسات الخطاب وثقة من المتكلم (الشاعر) بمعرفة المخاطب بمقصده إلى أنَّ الحذف في هذا السياق أكثر بلاغة وإنجازًا للمقصد من الذكر .

ومن ذلك قول الشاعر في قصيدة (شعب وقائد) – ١٨ يونيو ١٩٥٩م – :

شعب يعانق مجده المسلوبا ويَشقُّ آفاق الخلود وثوبا

قد أذّن الأحرار من أبنائه بالبعث فانتفض الرماد لهيبا[١]

حيث حذف الشاعر المسند إليه (المبتدأ) حذفًا تداوليًا اعتمادًا على سياق الحال الذي يغني عن ذكر المحذوف فهو يتحدث عن الشعب المصري الذي استرد مجده بفضل أبنائه وذلك في احتفال الاتحاد القومي بعيد الجلاء مبرزًا الدور الكبير للقائد جمال عبد الناصر في تخليص مصر والمصريين من الاستبداد والظلم واستعادة الشعب المصري لمجده المسلوب مما جعل الحذف هنا أحد آليات الافتراض المسبق اعتمادًا على ملابسات الخطاب وسياق الحال .

ومن الحذف التداولي أيضًا في شعر هاشم الرفاعي قوله في قصيدة (أضواء من السماء) – ديسمبر ١٩٥٨م – :

دينٌ بنى الإنسان كرّمَ شأنه وأقام ركن هَنائِه المتداعي[٢]

حيث يتحدث الشاعر عن فضل الدين الإسلامي وكيف استطاع أنَّ يقيم بنيان الإنسان من جديد بعدما تداعى فهو باعث الحياة ، ليبني الإنسان القويم ،وقد استعان الشاعر في هذا السياق بالحذف التداولي اعتمادًا على سياق الحال وملابسات الخطاب كاشفًا عن الارتباط الوثيق بين الحذف والسياق المستخدم فيه؛ إذ إنَّه يؤكد على التوافق بين المتكلم والمخاطب والمعرفة المشتركة بينهما .

---

[١] ديوان هاشم الرفاعي ،٢٤٧.

[٢] - السابق ،١٩٤.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الافتراضات والمتمثلة في السياقات اللغوية ، والبنى التركيبية ،أفعال إنجازية يتوسل بها المتكلم للوصول إلى مقصده في إطار المناسبة بينها وبين الموقف الكلامي أو سياق الحال والمتمثل في الموقف ، والمخاطب ، والمكان ،والزمان ،والمخزون اللغوي المشترك بينه وبين المخاطب .

ومن ذلك – الحذف التداولي– قول الشاعر في قصيدة (غرام لاجيء):

قلبان مغتربان أينعت المنى بهما ورفّ للهوى أحلام

أمل يراودنا ودون بلوغه نار ،ويوم هائلٌ وصدام [١]

واعتمادًا على سياق الحال والمعرفة المسبقة بين المتكلم والمخاطب استعان بالحذف التداولي في قوله (قلبان ،أمل) حيث حذف المسند إليه (المبتدأ) فيهما وذكر الخبرين مباشرة فالقلبان هما قلب الشاب والفتاة الفلسطينيين ،والأمل هو زواجهما. حيث يعبر الشاعر عن قصة حب نشأت بين شاب وفتاة فلسطينيين في مخيمات اللاجئين إلا أن الشاب ألزم نفسه بأن يكون مهر فتاته تحرير فلسطين والعودة إلى الوطن المسلوب لذلك قال :

إنَّا نَعُد له ....فلا تترقبي أنْ تشهد العرس البهيج خيام

ولايتوقف الحذف على الاستعمال عند الفعل أو الاسم بل يحذف الحرف أيضًا إذ "يجوز حذف النداء في الاستعمال الكثير ويبقى أثره" [٢] .

ومن ذلك قول الشاعر في قصيدة (رسالة في ليلة التنفيذ) – مارس ١٩٥٥م– :

أبتاه إن طلع الصباح على الدُّنى وأضاء نور الشمس كل مكان

واستقبل العصفور بين غصونه يومًا جديدًا مشرق الألوان[٣]

[١] ديوان هاشم الرفاعي ،٢٠٢.
[٢] د.عبده الراجحي ،التطبيق النحوي ، ٢٨٨.
[٣] ديوان هاشم الرفاعي ،١٦٨.

حيث حذف الشاعر حرف النداء مع بقاء أثره لاسيما أنَّ المنادى كثر ذكره واعتمادًا على الافتراض المسبق بين المتكلم والمخاطب ،وبالتالي فإن قيمة العودة إلى سياق الحال تتمثل في منحنا القدرة على تفسير المحذوف الذي توافق عليه المتكلم والمخاطب في سياقهما الكلامي .

ومن حذف الحرف تداوليًا قول الشاعر في رثاء زميله أبي الفتوح هلال في قصيدة (دمعة على زميل راحل) – ٢٢ أبريل ١٩٥٤م– :

أبا الفتوح لئن رحلت فإنمّا رحلت سعادتنا على الأعقاب

أي الورود غداة فقدك صُوّحت وذوي بموتك أي غُصْنٍ شباب

حيث حذف الشاعر أداة النداء (يا) وبقي أثرها في المنادى حيث نصب المنادى بالألف ؛ لأنَّه من الأسماء الستة (منادى مضاف) وقد حذف الشاعر أداة النداء اعتمادًا على الافتراض المسبق وجدير بالذكر أن النداء هنا ليس على الحقيقة ؛ لأن المنادى قد مات والشاعر في مقام الرثاء وقد صوَّغ للشاعر الحذف قرب المنادى من قلب الشاعر.

ونخلص مما سبق إلى مايلي :

– لسياق الحال دوره في التواصل اللغوي، حيث إنَّه يمثل افتراضًا مسبقًا للتواصل اللساني، وكذلك يمثل لب العملية اللغوية التواصلية ، فإذا كانت السياقات اللغوية والبنى التركيبية تحوي الافتراضات المسبقة والملابسات المحيطة بالخطاب، ممثلة لها، متاثرة بها، وقد عرفه علماء العربية بجانبيه اللغوي وغير اللغوي، من حيث النظم والتطبيق على حد سواء منذ قرون عديدة .

– لقد ظهر جليًا الارتباط الوثيق بين التقديم وملابسات الخطاب لاسيما أن كليهما يسهم في نجاح عملية التواصل .

– يعد التقديم أحد السبل الهامة التي تشبث بها هاشم الرفاعي ؛ المتكلم ليبلغ المخاطب مقصده من الخطاب .

– التقديم مبدأ تداولي استطاع من خلاله الشاعر أن يبلور مقصد المتكلم في البنية التركيبية القائمة على تغيير مواقع عناصر التركيب لأغراض تداولية مقصودة .

– التقديم أحد أدوات الافتراض المسبق التي يستعان بها لإثبات شيء أو نفيه بناءً على نظرة المتكلم للمخاطب وحاله وقت الخطاب وقابليته للمضمون .

– ظهر لنا أنَّ الحذف يمثل افتراضًا مسبقًا حيث يعبر عن سياق الحال بين المتكلم والمخاطب أثناء الخطاب .

– لايمكن تأويل المحذوف دون الإلمام بملابسات الخطاب التي تضطر المتكلم إلى اللجوء للحذف .